

## الذاتية الفردية والموضوع على ضوء علم النفس والاستشارة الشخصية

أ.د. محمد شطوطي

جامعة الجزائر -2-

" إذا أردت أن تعرف ذاتك فضعها بين الذوات كي تدرك مناحيها " لكل عصر رجاله، ولكل عصر قضاياها وهذا لا ينفي الاطلاع على ما كتب من ذي قبل... لأن من لم يحترم ما صنعت يد غيره لا يمكنه أن يصنع شيئاً على الإطلاق... ولأن الماضي في كل شيء هو أرضية للحاضر في طريق المستقبل؛ إلا أن هذا الحاضر هو في حاجة إلى دراسته، والبحث فيه وخاصة في عنصره الأساسي، وهو الإنسان، هذا الذي كثرت حوله الأشياء فغاب في كثير من الأمور وتركها تتحكم في مصيره سواء أكان يدرك، أو لا يدرك، فالأمر ما لاحظته من سنوات... وهو أن الذات الفردية التي هي الإنسان الفرد في المجتمع والفرد مع نفسه، والفرد الذي يعول عليه مستقبلاً هو في حاجة من ينظر إليه، ويساعده على حل بعض مشكلاته التي أغرقتة وأنسته الكثير من الأشياء المهمة في حياته والاستقرار النفسي فيها.

فموضوع هذه المقالة هو التفاتة إلى الذات أو العودة إلى الذاتية الفردية من جهة، وأمام الموضوع من جهة أخرى فما هي هذه الذاتية الفردية؟

### 1. تعريف الذاتية الفردية :

المراد بلفظة الذات (أو الذاتية) الشيء هو، ولا يمكن بحال من الأحوال أن لا يكون هو ذاته... والذات ثابتة، وبعضهم يشير بها إلى (الأنا) التي تتوب عن الشخصية<sup>1</sup>، وبهذا المعنى العام فإن الذات تدل على باطن الشيء وحقيقته<sup>2</sup> لا تتبدل... ما دامت موجودة في موضوعها، والذاتية ترجع كل حكم وجودياً كان أو تقديرياً إلى أحوال أو أفعال شعورية فردية<sup>3</sup> ويذكر الجرجاني في كتابه التعريفات قوله: الذاتي لكل شيء ما يخصه، ويميزه عن جميع ما عداه وقيل ذات الشيء نفسه وعينه وهو لا يخلو عن العرض والفرق بين الذات، والشخص هو أن الذات تطلق على الجسم وغيره. والشخص لا يطلق إلا على الجسم<sup>4</sup> ومنه أقول أن الذات هو (الأنا) الفرد التي يشير لذات الفرد لا غير<sup>5</sup> وهناك تعبير آخر بلفظة الذات إلى (الأنا الإنساني) بصفة عامة، أو الذاتية الاجتماعية كما يطلق عليها البعض من الدارسين ومنه فإن الذاتية الفردية ما هي إلا تعبير على وحدة النشاط النفسي للفرد<sup>7</sup>.

1 André le Gall. *Psychologie métaphysique*. Borocas, 1961, p 19.

2 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982)، ص 579.  
المرجع نفسه، ص 583

محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995)، ص 107

فاخر عاقل، معجم علم النفس، (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، ص 102

6 André Lalande. *Vocabulaire technique et critique de la philosophie*, Paris : PUF, 1996, p 642.

وحتى لا نختلف مع غيرنا من الدارسين أقول أن الذاتية الفردية هي إشارة إلى الإنسان الفرد لا غير مهما كان جنسه، أو سنه أو دينه والمهم هو معرفته وإمكانياته، وأساليب عمله، وسعادته حتى ساعة الرحيل من هذه الدنيا، وبهذه الدراسة نريد أن يحيا هذا الفرد حياة لا تقتصر على شيء، ويعي ذاتيته حتى لا تجره الأهواء وتقضي على قدراته الذاتية التي لا حدود لها لو وظفها لأبدع كما أبدع الذين سبقوه.

## 2. تعريف الموضوع:

إن تعريف الذاتية الفردية هو في طريق أن نعرف الموضوع لأن الذاتية الفردية لا شيء دون أن تكون مع الموضوع، فما هو الموضوع؟

الموضوع هو الشيء الموجود في العالم الخارجي أي خارج الذاتية الفردية، وهو ما ندركه بالحواس ونتصوره مستقلا عن رغباتنا وأرائنا<sup>8</sup>. وإذا أردنا الحقيقة، فإن نظرية المعرفة تقوم على وجود هذه الثنائية أي الذاتية الفردية من جهة، والموضوع من جهة أخرى ولا شيء ينوب أحدهما على الآخر فالذات في حاجة إلى الموضوع والموضوع لا يمكن أن يكون إلا بالذات المدركة والملاحظة، والمفكرة والموضوع هو الأمر الموضوع أمام النفس في أي وقت من الأوقات والمدرك، أو المفكر فيه<sup>9</sup>.

إذن الموضوع ليس شيئا غريبا عن الذات الفردية، وإنما هو موضوعها، ومجال نشاطها لا غير وقد قيل أن الموضوع بالنسبة للذاتية الفردية هي إثبات وجود لا غير.

## 3. صلة الذاتية الفردية بالموضوع :

يجب الفصل بين العالم الذاتي في الذهن، والعالم الموضوعي المتمثل في الواقع المادي<sup>10</sup> إلا أن هذا لا يمنع من أن صلة الذاتية الفردية بالموضوع صلة لا يمكن أن لا تكون باعتبار الوجود أو التحقيق فكل واحد منهما هو في حاجة إلى الآخر، إذن لا توجد هوة بين الذاتية والموضوع من حيث المبدأ ويقوم تفاعلها على أساس الممارسة التاريخية الاجتماعية للإنسان وهي وحدها التي تعطي مفتاحا إلى النشاط المعرفي للذات، وهذا يعني أن الإنسان لا يصبح ذاتا إلا في التاريخ وفي المجتمع ولهذا السبب فهو ليس فردا مجردا وإنما هو موجود اجتماعي<sup>11</sup>، فالصلة بين الذاتية الفردية والموضوع صلة دليلها الوجود الفعلي لها معا لا غير.

## 4. أهمية علم النفس في توجيه الذاتية الفردية نحو الموضوع :

لا خلاف مع أحد في أن الفروقات الملحوظ وجودها بين الأفراد تعود في قسم منها لأسباب تكوينية ذات علاقة بالوراثة وفي قسم آخر لتأثير البيئة وبالتالي فإن أحدا لا ينكر أنها قابلة للتغير الجزئي، والجزئي فقط بفعل هذه البيئة<sup>12</sup> وهنا يتدخل علم النفس، وذلك في القسم الذي ينتمي إلى البيئة، فيدرس ما هو الآن في الواقع<sup>13</sup> في طريق قبول الجديد في صالح الذاتية الفردية حتى تنسجم مع الآخر كموضوع خارجي عنها ومختلف معها في

يودين روزنتال، الموسوعة الفلسفية، بيروت، دار الطليعة، 1981، ط 3، ص 216

جميل اصليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، ص 446 8

فاخر عاقل، معجم علم النفس، ص 77 9

كفن هال، الشخصية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة، المكتبة الحديثة، 1960، ص 42 10

روزنتال يودين، الموسوعة الفلسفية، ص 218 11

12 موريس روكلان، تاريخ علم النفس، ترجمة: علي زيعور وعلي مقلد، بيرون، منشورات عويدات، 1972، ص 65.

13 Marcel Boll, Français Saud, La personnalité, Editions Masson et Cie. Paris, p 115.

كثير من الأمور ولكن التقارب ضرورة ملحة وعلم النفس له هذا الدور، على مستويين الأول الوعي والإدراك الفعلي للأشياء وعلاقتها مع الذوات، والثانية حاجة هذه الذاتية الفردية للآخر، بعلاقات اجتماعية ضرورية... وعلم النفس في الحقيقة نجد عنده التوجيه صورته هو أن الدراسة المثالية في نظر (الآن)<sup>14</sup> هي التي تشبه المصنع حيث يكتسب الناشئ (كذاتية فردية) المعرفة والخبرة بالتمارين الشخصية المتكررة لا بسماع محاضرات العلم حول موضوع ما<sup>15</sup> وهو جانب تربوي يقوده علماء النفس وخاصة علم النفس التربوي الذي يرى أن الذاتية الفردية قيمتها في ما تتعلم، وما تتجزه هي بعد حين... وهي أيضا إثبات وجود في آخر المطاف.

ومنه أقول أن علم النفس ضروري لتوجيه الذاتية الفردية نحو الموضوع أي فهم العالم الخارجي والانسجام معه وهذا العصر أراه هو عصر علم النفس، لأن الإنسان فيه يعيش حياة قلق إلى حد كبير، وقد نضع دراسة خاصة بذلك للتعرف على هذه المشكلات وأسبابها في مقالة لاحقة.

## 5. الموضوع كمجال حيوي للذاتية الفردية :

لقد سبق وأن ذكرت أن الموضوع أرضية للذاتية الفردية وبدونه لا يمكن للذاتية أن تثبت وجودها كشيء متصل ولكنه بالموضوع تكون كذلك، والموضوع بعبارة أخرى هو (محل العرض المختصر)<sup>16</sup> لإثبات غيره، ولهذا فهو ضروري للذاتية الفردية وفي الموضوع نلاحظ (عاطفة احترام الذات)<sup>17</sup> وبدونه لا يمكن ملاحظة ذلك والأنا أي الذاتية الفردية هو الذي يحفظ الاتصال بالعالم الخارجي من أجل مصالح الشخصية كلها ومطالبها البعيدة وحين ينجز الأنا وظائفه التنفيذية بحكمة يسود الانسجام ويعم الاعتدال، وحين يستسلم الأنا (الذاتية الفردية) للهو أو للأنا الأعلى أو العالم الخارجي أو يتنازل عن كثير من سلطته لها ينجم عن ذلك الاضطراب والجروح<sup>18</sup> كل ذلك والذاتية الفردية (الأنا) في الموضوع فالمجال مجال حيوي للذاتية الفردية، ولا يمكن أن لا يكون.

## 6-موقف علم النفس من الذاتية الفردية والموضوع في حياتنا المعاصرة:

معطيات حياتنا المعاصرة هي التي دفعت بعلماء النفس أن يدرسوا حالات الإنسان المعاصر الذي أدرك أن القلق أفسد عليه حياته، أو يكاد، وقد يدفع به إلى متهاتات لا مخرج له منها إلا بالألم، وبالحزن، وبالندم...

وقد برّر بعض الدارسين مشكلة الذاتية الفردية بكثرة الأشياء في حياة الفرد، والإنسان العاقل لا ينكر نتائج العلم كتكنولوجيا وأساليب حياة إنما هو عدم التحكم في التكنولوجيا هو الذي أقلق البعض بل، وقد انعكس على حياة الفرد وكادت أن تعزله عن المجتمع وقد بدأت بالفرد صار يستأنس بما أنتجته مخابر العلماء من وسائل ترفيه بدل أن يبقى مع الآخرين في لقاءات هي بالضرورة تمتن العلاقات وتتبادل فيها الخبرات، فصار الفرد وحيدا هنا، وهناك إلا نادرا وفي حدود العمل أو في بعض المناسبات، فالفرد (الذاتية الفردية) هي الآن تعاني من وحدة قد تضير بها وتفرغها من كثير من المعاني السامية والقيم الأخلاقية الرفيعة من ذلك عدم الاهتمام

الآن(1868-1951) مفكر فرنسي له مجموعة مقالات وأحاديث في التربية 14

أنطوان. م. الخوري، أعلام التربية حياتهم آثارهم، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1964، ص 222

محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 236 16

أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1966، ص 360 17

كلفن هال، الشخصية، ص 40 18

الفرد بأخيه الإنسان الذي في حاجة إلى هذا الاهتمام في كل حين، ولست أبالغ إذا قلت أن الإنسان صار يخاف من أخيه الإنسان دون مبرر... ولا يثق فيه، وهذه نظرة خاطئة إذا أدركنا أنّ الإنسان اجتماعي بالطبع ولا يمكن أن لا يكون كذلك إته الصراع بين الذات والذات...  
**7- الذاتية الفردية والموضوع على ضوء الاستشارة الشخصية:**

لما لاحظ علماء النفس هذا الصّراع الذي هو بين الذات والذات، فكروا بجدية على إحداث علم يقرب بين الإنسان وأخيه الإنسان دون المساس بمصالحه التي يخاف على زوالها، أو نقصانها...<sup>19</sup>.

ويسمى هذا العلم بـ (الاستشارة الشخصية)<sup>20</sup>، أو الكوتشينغ، غايته الأساسية مرافقة الإنسان والعمل على مساعدته كي ينتقل من نقطة تقلقه وتفسد حياته إلى نقطة يشعر معها بقيمته، وإنسانيته كذات حرّة لها خصوصياتها وكذات هي بين الذوات فاعلة أو مشاركة في عجلة الحياة التي ليست ملكا لأحد، بل ملكا للجميع، والإنسان الناجح هو من أدرك أنّ لذاته إمكانية الفوز بالكثير في مجال تحقيق الذات ما تريده، وهي بين الذوات...<sup>21</sup>

الكوتشينغ أو المستشار الشخصي في خدمة الذات نحو الموضوع، وهناك تقنيات خاصة بهذا العلم لا يمكن أن لا تكون فالذات الإنسانية مهما كانت هي في حاجة إلى مرافق<sup>22</sup>، يرافقها في عصر كثرت فيه الأشياء والصور، وكثيرة هذه الأشياء وهذه الصور ليست بالتّي ترفع من قيمة الإنسان، أو تسعده لأنّ عالم الأشياء هو عالم الموضوع والذات في حاجة إلى مستشار يبصرها، ويدلها على مواطن القوة، والضعف، تلك هي غاية الكوتشينغ أي الاستشارة الشخصية.

مفتاح هذا العلم سؤال لا غير صورته: (ماذا تريد؟)<sup>23</sup> ومنه ينطلق المستشار الشخصي مع الزّبون في أسئلته حتى يصل معه إلى مواقف يؤمن بها، ويأخذ بها حتى ينتقل من حالته السلبية إلى حالته الإيجابية بوعي هو الذي يقرر ومنه ينطلق إلى إدراك ما يريده فعلا لحياته دون إملاء من غيره...

الذات إذن في حاجة إلى المستشار الشخصي مهما كان سنّ صاحبها أو جنسه، أو دينه... لأنّها تعيش في وسط تكنولوجي لا يرحم، فالكوتشينغ يرافق الزّبون وهي رفقة لطيفة لا تقرر مكان صاحبها بل توضح له أسباب حالته السلبية إلى وضع إيجابي هو في صالحه دون الالتفات إلى الماضي، إنّها النظرة الجادة نحو المستقبل لا غير<sup>24</sup>.

وغاية المستشار الشخصي هو أن يجنب الإنسان (الزّبون) السلبي وأن يساعده على الإيجابي وأن لا يلتفت إلى الذين يتكلمون عن أشياء لا وجود لها بل يشجع على العمل الهادف للوصول إلى تحقيق الهدف من هذا العمل أو ذلك، إذن المستشار الشخصي لا يدل على السلبي، أو الماضي بل دوره الأساسي هو الإيجابي فقط والمستقبل لا غير.

<sup>19</sup>تحصلت على دبلوم الكوتشينغ أي المستشار الشخصي من مركز العزيمة عام 2011، وقد أعاني على معرفة الكثير عن الذات الإنسانية هذه التي صارت تعيش القلق دون أن تدرك أسبابه...

أي الذات الفردية في المجتمع<sup>20</sup>

<sup>21</sup> المستشار الشخصي ليس طبيبا والزّبون ليس مريضا، وإنما هو مرافق، والآخر زبون هو بحاجة إلى من يرافقه عن خبرة المستشار والإطلاع على تقنيات العمل الاستشاري لا غير.

<sup>22</sup> ماذا تريد؟ هو سؤال مفتاحي أساسي به يدخل المستشار إلى عالم الزّبون دوت تجريح أو الشعور بالدونية...

...عالم الكوتشينغ هو طريق المستقبل لا غير<sup>23</sup>

أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، ص 616 24

وفي ختام هذه المقالة أقول أن الذاتية الفردية ليست بالتي تقوم بمفردها ولا أن ترعى ذاتها بذاتها، وإنما هي ذاتية فردية تحتاج إلى ذوات فردية أخرى من بني جنسها ترعاها وتحميها، وبصدق من كل الجوانب الأخلاقية والجمالية والعلمية، والنفسية وغيرها ولا ننكر تقدم العلوم وما قدمته للإنسانية خدمة وتسهيلا لها في كثير من المجالات الحياتية إلا أننا لا نريد أن يكون الإنسان عبدا لها دون مراعاة نفسية الفرد وكرامته، وإنسانيته لأن الشعور بالكرامة هو إقامة مجتمع لا يفتقر إلى دروس في القيم... وبه فقط يستطيع الفرد أن يقاوم كل نقص في جوانب الحياة وهي كثيرة، وأرى أن الشعور بالكرامة هو في طريق التصدي إلى كل ما يمس مقومات المجتمع بكل صورته وفي ذات الوقت تمتين علاقة الذاتية الفردية بحب الوطن لا قولا يقال هنا، وهناك ومن هذا تظهر الأنا الاجتماعي التي تتطوي تحتها كل الذوات الفردية بتفاعل إيجابي نحو سعادة المجتمع بأفراده... وليس ثمة شك في أن الخبرة تلعب دورا هاما في عملية الإدراك وعلى هذا الأساس نريد أن تكون الذاتية الفردية في مكانها اللائق بها وهو العالم الخارجي بكل صورته لتتكون لديها الخبرة وبوعي الخطة المتبعة للحفاظ على الذاتية الفردية خدمة للمجتمع، لأن احترام هذه الذاتية الفردية معناه في طريق مجتمع قوي يحسن التصرف، وهو في عزة، وكرامة نفس ولا يفتقر إليهما أبدا لأن الذاتية الفردية لا تباع ولا تشتري إنما توجد وبرعاية إلهية، نحو رعاية إنسانية كأمانة وواجب... وبتوجيه لائق بها... ومنه أقول أن الشخصية هي الموضوع الأول والأخير في علم النفس في صورتها الذاتية الفردية لا غير.

ولا بأس أن أشير هنا أنّ موضوع الذات الفردية هي أساس كلّ نشاط إنساني مهما كان بسيطا، وأنّ علم النفس الطفل (مثلا) لم يكن يوجد من أجل دراسة الطفل من الناحية البيولوجية، وإنما هي دراسة الطفل كذات فاعلة في مستقبل أيامه كفرد في مجتمعه وذات في المجتمع الإنساني صورتها العلماء، والفلاسفة، والأدباء.. من أجل الإنسان حيث يوجد هذا الإنسان دون استثناء، تلك هي غاية هذه المقالة.